IJCRT.ORG ISSN : 2320-2882

INTERNATIONAL JOURNAL OF CREATIVE RESEARCH THOUGHTS (IJCRT)

An International Open Access, Peer-reviewed, Refereed Journal

ظاهرة العناوين لقصائد محمود درويش وخصائصها الفنية

محمد مزمل حق

الباحث قسم اللغة العربية وآدابها

الجامعة العالية، كولكاتا- الهند

Abastract

This paper presents the poetic contribution of Mahmoud Darwish. He is one of the renowned poet among the Arabic language Poets for national identity and patriotic literature. He has an outstanding contribution in modern Arabic poetry as he is the first poet who paid attention towards the issues of Palestinian. Along with patriotism, national Identity, he has also considered the agendas of gender consideration, Islam and safe identity. His poems reflect his concern for the homeland, woman, self identity and land of Palestine. In this paper I convey his expression towards Palestinian social issue which has left a deep imprint in his writing. His approach in writing the poetry was novel way that is famous in Arabic literature.

ملخص:

محمود درويش أحد أهم الشعراء الفلسطينيين المعاصرين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة والوطن المسلوب. يعتبر درويش أحد أبرز من ساهم بتطوير الشعر العربي الحديث والإدخال الرمزية فيه. وهو شاعر المقاومة الفلسطينية، يمثل شعره مقاومة على نار غير ذات لهب يكمن أوارها في النفس العربية كمون الروح في الجسد الحي بحيث أصبح رمزا من رموزها الخالدين. ويعبر شعره عن رغبة واضحة لتشكل مرتكزا مهما لفكره النضالي، وتقوم هذه الرغبة على تأصيل الاتجاه المقاوم في الوجدان الفلسطيني والعربي، والتي تبعث في نصوص الشاعر نيران الغضب في وجه المغتصب، وكان له الدور المهم والأبرز في تحريك الانتفاضة الفلسطينية ضد المحتل الصهيوني. وكل هذا ما جعل شعره مصرد رؤى وابعاث لحالة تجدد ومقاومة لشعب حي يعشق الحرية.

تقديم:

إن الشعر له دور كبير في بناء الوعي الوطني، وصناعة ثقافة الأمل والصمود، ناهيك عن ثقافة الانتصار، كل هذا يضع الأدب وامتداده الثقافي والمعرفي في موقعه الصحيح في قضية فلسطين، ومعرفة الدور المنوط به كونه مرتكزا من مرتكزات الثقافة القادرة على أحداث تغيير مهم في رسم المشهد الفلسطيني، والشعر هو مدخل له أهمية كبيرة في حياة الأمم، ومكانة الشعر في التراث وهوية الثقافة، لأن الشعر فيها أحد صانعي الوجدان والفكر، وهو من المساهمين في بناء شخصيتها الحضارية على الدوام. كما أنه يشكل مدخلا إلى بيان أهمية قضية الوطن خاصة فلسطين في كتابة محمود درويش، ومنزلتها العظيمة في نفوس أبنائها وأبناء الأمة العربية والإسلامية. ومحمود درويش، هو شاعر الوطن وشاعر الأمة وشاعر الحب وشاعر الأرض المحتلة وشاعر فلسطين ولسانها، لقد أحب وطنه، فلسطين بكل مشاعره وعواطفه، من أجل ذلك كان شعره شعلة مضنية يوقظ النائمين والغافلين من غفلتهم ويذكر بحقهم المغتصب، شعره ألهب المشاعر والعواطف الإنسانية وأثارت العقول. وفي الواقع لقد أشاع الشاعر الكبير وطنه فلسطين في كل ألفاظه ومعانيه وأبياته. وله دور مهم في إيقاد شعلة المقاومة وتحفيز الشعب على الصمود في أرضه والتمسك بها، وإذا كانت فلسطين قد واجهت محتلا أدمى أحلامها وواجهت حربا لا تقل ضراوة عن الوجه الآخر المعروف لها، وإذا كان المؤرخون قد عرفوا عدد الشهداء في الكثير من المجازر التي ارتكبها الصهاينة في طول فلسطين وعرضها. وتعيش الثقافة الفلسطينية والشعر جزء منها مواجهة عنيفة مع محتل شرس يواصل حربه المثقف الفلسطيني منذ النكبة.

محمود درويش والبيئة المحيط به:

الشاعر الفلسطيني محمود درويش هو أحد أبرز الشعراء العرب عامة والفلسطينيين خاصة، والمعروف بأشعار الوطنية والقومية الممزوجة بالحب والملازمة له عند ذكر اسمه، كما يعد درويش أحد الشعراء الذين أضافوا إلى الأدب العربي الحديث خاصة في جانب الدلالات الرمزية فيه.([1]) حيث كان قصائده على قدر عال من الأدب الرفيع بالإضافة إلى أن كان ناقدا جيدا، وعمل كذلك صحفيا لدى العديد من المجلات، فكانت له الكثير من المقالاتالمختلفة فيها والتي دائما ما كان يتخللها مفردة الوطن وكل ما يربط بهذه المفردة من الحب والحنين والقضية والأدب والنقد.([2]) لذا تمت ترجمة قصائد درويش إلى لغات مختلفة، ومن الجدير بالذكر أنه قد حصل على العديد من الجوائز، مثل جائزة اللوتس، وجائزة ابن سينا وجائزة لينين والعديد من الجوائز الأخرى العالمية والأوسمة.([3])

[1] بشرى وي، محمود درويش وقصائده في قضية فلسطين، platform almanhal.com، اطلع عليه بتاريخ 21-12-2019، بتصرف.

[2] د. بسام خلف سليمان الجمداني، المقالة عند محمود درويش ، ص:9.

[3] كامل سلمان جاسم الجبوري، معجم الأدباء من العرصر الجاهلي حتى سنة 2002م، جزء 6، ص: 181،

نشأة محمود درويش وتعليمه:

ولد الشاعر محمود درويش في الثالث عشر في شهر مارس لعام 1941م في إحدة قرى فلسطين اسمها "البروة" وهي قرية صغيرة تقع على بعد 9 كم من مدينة عكا وتشتخر بعدد شكانها القليل الذي لا يتجاوز 2000 نسمة، بالإضافة إلى الوجود التلال الصخرية التي تقع أعلاها، ووالد درويش اسمه "سليم درويش" وهو رجل بسيط عمل بالفلاحة فقط، وأمه من قرية "الدامون"، والتي كانت لا تعرف القراءة ولا الكتابة؛ إلا أن والدها كان عُمدة قرية الدامون واسمه "أديب البقاعي"، وكان درويش الابن الثاني في عائلته التي تتكون من ثمانية أبناء، خمسة منهم أولاد والبقية بنات، وقد كان الابن الأكبر للعائلة اسمه "أحمد" الذي تأثر به درويش في بداياته الأدبية لأنه كان يُعني بالأدب ويُبدي اهتمانه به، بالإضافة إلى أن أخاه زكي كان كاتبا في المجال القصصي، أما بالنسبة لمحمود درويش فلم يبق في قريته تلك إنما غادرها ليعمل معلما قرية تسمى "الجديدة"([4])

وكان محمود درويش متفوقا في دراسته أثناء مرحلته التعليمية، وكانت بوادر اهتمامه في الأدب العربي واضحة في تلك الفترة؛ فكان يكثر من المطالعة في الأدب، ويحاول كتابة الشعر، ومن الجدير بالذكر أنه قد اعتنى بالرسم كموهبة كان يمتلكها في ذلك الحين، إلا أنه تفوق عن ممارستها لما تحمله من نفقات مادية لا يستطيعها والده، أما دفاتر الكتابة التي يملكها فكان يحصل عليها بصعوبة، فكيف بتكاليف أدوات الرسم؟ ومع أن ذلك أحزنه إلا أنه انتقل للشعر كجانب آخر يعوضه عن الرسم الذي كان يحبه، فالشعر لا يحتاج ما يحتاجه الرسم من النفقات، وهكذا كانت أولى تجارب درويش في كتابة الشعر، من خلال سرده عواطف الطفولة ومشاعرها، بالإضافة إلى محاولاته في الكتابة عن أمور أكبر من طاقته كطفل.[5]

كان لبعض معلمي درويش دورا بارزا في تشجيعه على الكتابة، ولذلك بقي مدينا لهم بالعرفان والجميل حتى آخر عمره، خاصة أولئك الذي ساعدوه لي بدايته الشعرية، وكان قد ذكر منهم معلمه "نمر مرقس" كأحج الذي قدموا له العون في مرحلته تلك، واستمر محمود درويش في تعليمه حتى أكمل الثانوية العامة كلنه لم يستطع إكمال مسيرته التعليمية الجامعية، فانتقل إلى العمل ككاتب في الصحف والمجلات كمهنة يحترفها، فعمل في صحف الحزب الشيوعي، بالإضافة إلى عمله في مجلة الفجر الأدبية، وفي عام 1970م انتقل درويش مسافرا إلى موسكو لإكمال تعليمه الجامعي، ثم انتقل عام 1971م إلى القاهرة فمكث فيها سنوات قليلة، وبعد ذلك سافر إلى العديد من الدول الأوربية والعربية، وحصل على مناصب رفيعة في الجانب الإعلامي والسياسي كلونه أحد أهم شعراء فلسطين.([6])

---

4 حيدر توفيق بيضون، محمود درويش- شاعر الأرض المحتلة، حزء 92، سلسلة أعلام الأدباء، بيروت : الكتب العلمية، ص: 16.

5 هاني الخير، محمود درويش: رحلة عمر في دروب الشعر/ موسوعة أعلام الشعر العربي، دمشق: مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، ص:16.

6 المرجع السابق: ص: 13.

المناصب التي شغلها محمود درويش:

عمل محمود درويش في مناصب مختلفة أولها في التحرير لدى مختلف الصحف العربية مثل جريدة الاتحاد لحزب "راكاح"، كما كان له عضوية فيها منذ 1961م بالإضافة إلى أنه عمل محررا في بيروت مع مجلة الشؤون الفلسطينية حتى عام 1982م ثم أصبح رئيسا للتحرير في قبرص لمجلة الكرمل المسماة باسم "نيقوسيا" ومن الجدير بالذكر أن مجلة الكرمل الفلسطينية كانت قد أسست عام 1981م وكانت تشمل كافة الجوانب الأدبية وبالإضافة إلى اعتنائها بالفنون الأدبية جميعها، لذلك حظيت بشعبية كبيرة في كافة دول العالم وعند مختلف التيارات الفكرية.([7])

اعتبرت مجلة الكرمل ناشطة في جانب نقل التراث العالمي إلى اللغة العربية من خلال عمليات الترجمة للقصص، والروايات والمقالات والشعر والتي شارك فيها العديد من مترجمي الوطن العربي، من سوريا والمغرب، وتونس، ومصر وفلسطين، كما امتلكت في حصيلتها أثناء الثلاثين عاما تسعين عددا مختلفا، وساهمت في فتح أبواب البحث العلمي والتعريف بمجموعة من الأدباء والمفكرين والمحاضرين من شتى جامعات العالم. وقد واصل درويش عمله في الصحافة حتى عام 2002م، وكان إلى جانب عمله فيها يكتب المقالات على اختلاف أنواعها. ومن المناصب التي شغلها درويش كذلك رئاسة رابطة الكتاب والصحفيين الفلسطينيين.([8])

مذهب محمود درويش في الشعر:

يعد الشاعر محمود درويش أحد شعراء قصيدة الشعر المعاصر، فمن الجدرير بالذكر أن القصيدة المعاصرة تعاقب على العديد من أجيال الشعراء التي كانت ثلاثة، أولها جيل الأربعينيات ثم الخمسينيات وآخرها الستينيات، فيعد درويش من أصحاب الجيل الثاني وهو جيل الخمسينيات إذ قام شعراء الثلاثة أجيال بمحاولتهم في مجال التصوير الموسيقي للقصيدة العربية في تجاربهم المختلفة، وذلك تحت مظلة الفلسفة الجمالية، وبحسب رؤية الناقد عز الدين إسماعيل فهي فلسفة تؤمن بأهمية الواقع النفسي في الفن، والحياة معا، كما يرى أثر تعلق القصيدة العربية المعاصرة بالجانب السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي وغيرها من الجوانب المختلفة، فكانت القصيدة على مقربة من الطابع العصري ومحتوياته، وهذا ما جعل الشعراء يتلمسون قضايا العصر ومضامينه، ومن مظاهر ذلك ارتباط الشعر المعاصر بفلسطين كأداة للتعبير عن قضيتها، فكان درويش ممن كتبوا فيها ومثله الشاعر سميح القاسم والشاعرة نازك الملائكة.

سمات التجربة الشعرية عند محمود درويش:

تنقل شعر محمود درويش في مراحل تدريجية حتى وصل ذروته الأدبية، فكان بدايته الشعرية مصحوبة بالبساطة، وسواء في المعاني أم الأفكار المحدودة، أم حتى في تعبيره الفني المباشر الذي رافقه التصوير الشعري التقليدي، ومن الجدير بالذكر أنه كان متأثرا بأشعار من قبله، مثل شعر عمر أبو ربيعة والمتنبي في شعر المفاخرة، ثم انتقل إلى مرحلة ناضجة فنيا، إذ

7 د. تهاني عبد الفتاح شاكر، محمود درويش ناثرا، نقد أدبي، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص:13،12.
8 حمو حنات، الحنين في شعر محمود درويش، الجزائر: وزارة التعليم العالمي والبحث العلمي، ص:15.

أصبحت أشعاره تميل إلى كونها أكثر رقة؛ وذلك إثر تأثره بشعراء الحركة الرومانسية، مثل على محمود طه وإبراهيم ناجي، وغيرهما. وفي آخر سنوات حياته كان لدرويش تحول آخر في شعره، فعمل على الجمال الأخاذ والمبدع في شعره، فكان للحب حيز واضح في شعره، إلا أنه استخدمه كمفردة عامة وشاملة فيه، بالإضافة إلى أنه ربطه وثيقا بقضية وطنه الحبيب. لذا وصف الحب بأنه طريق مجفوف بالشكوك مشيرا بذلك إلى النضال.([9])

شهد لتطور شعر محمود درويش الكتاب عميش العربي في كتابه "القيم الجمالية في شعر درويش"، فقال فيه: "فقد ساقت ضرورة التجاوب مع الواقع المفروض بوادر الاستعداد للتدرج الؤية الشعرية الدرويشية نحو الاكتمال الفني، مما يحول له تبوء السمعة اللائقة به بين أعلام الشعر العربي المعاصر" لذا عد شعر محمود درويش أنموذجا مثاليا للشاعر العربي خاصة في تطوره على مدى مراحل حياته، ومن الأمور التي ساهمت في نمو شعره قضية وطنه كذلك ما يواجهه العصر من اختلافات في القيم والأنظمة والموازين بالإضافة إلى حال الإنسان الجديد الذي لا يدرك قيم العدل والحرية والحق والاستقرار وإضاعته طريقه الصحيح وفقدانه لقيمه.

ظاهرة العناوين لقصائد محمود درويش وخصائصها الفنية:

كان محمود درويش شاعر المقاومة فأكثر مضامين قصائده تدور حول فلسطين والاحتلال، وعند التطرق لدواوينه نجد مضامين قصائده تتكون من التحدي، البؤس والحرمان، التشريد والإبعاد، والقتل والاغتيال، السجن، الصمود ورفض المساومة، والأرض، والأمل إلى المستقبل، التي نحاول معالجتها في هذا المقال وفيما يلي:

الصراع والتحدي:

يعتبر محمود درويش الشعر سلاحا في الصراع بينه وبين اليهود، إذ يقول: "نحن في الحاجة إلى درس الوطن الأول ، أن نقاوم بما نملك من عناد وسخرية، بما نملك من جنون". ويظهر من هذا العناد في كثير من أبياته، يستهدف إلى اضطرام نيران المقاومة والدفاع في قلوب الشعب الفلسطيني، وفي قالب الكلمات التحذيرية إلى حد نستطيع أن ندعى أن جوهر أدبه الرفض، وأن مثل هذه القصائد تمثل في أوضح صورها، عندما تكون فوهة البندقية مصوبة إلى صدر الشاعر الأعزل تمثل لكلماته الجرأة والرجولة الذهنية والعقائدية. وهو يقول: "إننا نخوض المعركة إن لم نتسلح تفاؤلا تاريخيا وبجواز تشد العضة في معركة التحدي، فكيف نمضي؟ إننا نعيش في المعركة لحظة تلو لحظة، ونحس أننا أمام التحديات الكبرى المستمرة. إننا عندما نكتب نتحدى، وعندما نكون موجودين على أرضنا نتحدى، وعندما نأكل من زادنا نتحدى، لأننا نقدم ترجمة الوطن كله إلى العربية لغة، وإلى الصهيونية أرضا وتقاليد وزادا." ويوقن درويش بدور أشعاره ومسؤولية الكلمة في صحو الشعب وتحريضهم إلى القيام، فيقول:

[9] نورة بن تهامي، د. مليكة دحامنية، ، انفتاح النص الشعري عن محمود درويش قصيدة "أنا يوسف يا أبي" أنموذجا، مجلة حوليات آداب واللغات، العدد 11، المجلد5 ، صفحة 214.

كل الرواية في دمي مفاصلها
تفضل الحقد كبريتا على شفتي
أطعمت للروح أبياتي وزخرفها إن لم تكن
كسيوف النار قافيتي!
آمنت بالحرف..إما ميتا عدما
أو ناصبا العدوي حبل مشنقة
آمنت بالحرف...لا لا يصير إذا
كنت الرماد أنا..أو كان طاغيتي!
فإن سقطت وكفي رافع علمي
سيكتب الناس فوق القبر: لم يمت[10]

يؤمن درويش بقاء صوته خالدا حتى بعد الموت وإنه يحرق حياة الصهيونية كالنار. إنه يوصي رفاق الشعراء بترك قصائدهم الماضية التي كانت تدور حول وصف النجم فوق غيمة والليالي والقمر والخمر وتودد النساء، لأنه قد تغير كل شيء بعد هجمة اليهود، ومات ما فات، وهو يقول:

"نحن في دنيا جديدة
مات ما فات، فمنا يكتب قصيدة
في زمان الريح والذرة
يخلق الأنبياء!
قصائدنا، بلا لون
بلا طعم..بلا صوت!
إذ لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت!
وإن لم يفهم البسطاء معانيها
فأولى أن نذريها
ونخلد نحن.. للصمت..." [11]

يرجو درويش أن تكون أشعاره كوسيلة للحرب، تسوق الشعب إلى القيام، وأن تكون إزميلا في قبضة كادح، وقنبلة في كف مكافح، محراثا بين يدي فلاح، ويفخر بكلماته، أن تكون غضبا ومجرا في يد المناضلين، وحنظلا في فم العدو، ويقول:

"لست جنديا كما يطلب مني
فسلاحي كلمة"[12]

إنه يأمل أن يحفظ الناس قصائده عن ظهر قلوبهم، ويشربون هذه الأناشيد حتى تؤثر في قلوبهم. فإنه لا ينظم أشعار الحب والغزل كالبلابل، من السلاسل أن يقاتل من أجل وطنه بأشعاره:

"يداك خمائل
ولكنني لا أغني

10 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 9.
11 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 55.
12 المرجع السابق، ص: 272.

ككل البلابل
فإن السلاسل
تعلمني أن أقاتل
أقاتل....أقاتل
لأني أحبك أكثر"([13])

ثم يخاطب الأعداء ويحذرهم بأن الدماء التي يشربونها من جثث الشعب الفلسطيني، تخنقهم في المستقبل القريب، كأنه يسمع صوتا من السماء يصرخ ويخاطب الأعداء الذين أغاروا، وهدموا بيوت الشعب الفلسطيني، وشيدوا بلاطهم على أشلاء الشعب وأنقاض بيوتهم:

"يا ويل من تنفست رئاته الهواء
من رئة مسروقة!
يا ويل من شرابه دماء!
ومن بني حديقة ترابها أشلاء
يا ويلة من وردها المسموم!!

وفي قصيدة "أمل" ينظم قائلا:

ما زال في صحونكم بقية من العسل
ردوا الذباب عن صحونكم
لتحفظوا العسل!!
مازال في كرومكم عناقيد من العنب
ردوا بنات آوى
يا حارسي الكروم
لينضج العنب
مازال في بيوتكم حصيرة ..وباب
سروا طريق الريح عن صغاركم
ليرقد الأطفال...."([14])

في هذه القصيدة يدعو درويش الناس إلى المقاومة والقيام لحفظ كل ما يمتلكون، من تعدي العدو، حتى آخر قطرة من دمائهم، ويحرض الشاعر الناس لرد العدو، ويحرض الناس أن يغلقوا أبواب بيوتهم، ويحفظوا أطفالهم أمام العدو. يدعو درويش الشعب إلى توحيد الصنوف والاتحاد أمام العدو في بعض قصائده، ويريد من الشعب أن يضغطوا الكف على الكف، ويمشوا إلى صفوف الأعداء، ويخبرهم بأن هذه العقدة لا تحل إلا بيد الفلسطينيين أنفسهم.

البؤس والحرمان:

حرم الشعب الفلسطيني من الأمن وحرية البيات، ليس له حق الحياة، وهو محكوم بالتشرد والسجن والخوف والاغتيال، سلب منه وطنه وجميع حقوقه الطبيعية، وتفكك إلى وحدات كالحصى والرمل. ولكن رغم كبت الحرية الفكرية من جانب اليهود، نشأ في فلسطين جيل من الشعراء الذين

13 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 243.
14 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 14-15.

ولدوا وترعرعوا في حضن المأساة، وشاهدوا الحقيقة وعاشوها، فخرجت من قلوبهم النبرة الشعرية المملوءة بالبؤس والحرمان والحزن والأسى، ومحمود درويش من الذين ذاق مرارة المأساة ونمت أغصان نخلة أغانيهم في الحزن والفوضى. وتموج أشعاره بالسطور التي تنقل المعاناة ونتائج المأساة الأليمة بكل أبعادها، فهذه المأساة حلقة من صراع الإنسان المسحوق، ليأخذ دوره الذي يستحق في الحياة وفي نشاطه البشرى. إنه لا يصمت، وشعره ليس معزولا عن الناس، لأنه يعتقد بأن الصمت المفروض من جانب العدو يساوي الموت، وهو كالسيف الذي يجرحه:

"الشاعر العربي المحروم..
تعود أن يموت بسيف صمته
ألقى على عينيه كل السر.."([15])

ها هو محمود درويش، محروم من كل النعم التي خلقها الله، وأودعها في تراب فلسطين. إنه محروم عن جميع حقوقه، حتى عن حق التكلم والبيان، واليهود لا يسمحون له وصف حرمان الشعب وبؤسه في قصائده. لكن تتجلى حياة الوطن في أشعاره. فإنه يبلغ ندائه، ويريد أن يتكلم، ويبلغ رسالته إلى مسامع المجتمع العربي:

" فدعونا نتكلم
ودعوا حنجرة الأموات فينا تتكلم..."[16]

إنه يعتقد بأن حثث أبناء فلسطين التي تتساقط كأوراق الشجرة على الأرض أرفع صوت لإبلاغ نداء التظلم والحرمان. فيصور درويش خصوبة أرض فلسطين ونضرتها وسمائها الزرقاء والسكينة والهدوء والمخيمين عليها بكلمات ممزجة بالأسف والحنين، الأسف الناجم عن اغتصاب هذه النعم، وهو حائر لا يعرف سبب هذا الاغتصاب:

" غابة الزوتون كانت مرة خضراء
كانت.. والسماء
غابة زرقاء ..كانت يا حبيبي
ما الذي غيرها هذا المساء!"[17]

ويذكر أيام طفولته، تلك الأيام التي عاشها في قرية "بروة" لعب بين ورودها وزيتونها، وتنفس في جوها الرائع، لا ينسى درويش ذاك اليوم الذي هدم اليهود بيته، وداسوا أزهاره بأقدامهم. فنضب الآبار والمياه، وأصبح درويش محروما من كل النعم منذ الطفولة:

"عندما كنت صغيرا
وجميلا
كانت الوردة داري
والينابيع بحاري
صارت الوردة جرحا
وينابيع ظمأ..."([18])

---

15 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 48.
16 المرجع السابق، ص:290.
17 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 214.
18 المرجع السابق، ص: 281.

ويصف درويش في بضعة أسطر جميع الجرائم التي افترقها اليهود ضد شعب فلسطين، من سلب حريته في التعبير والقيود والسلاسل التي وضعوها على يده والتعذيب في غرفة التوفيق والسبب والشتم، وما واجهه من الافتراء والاتهام بسبب عروبته. فهو يصف بلغة سهلة، واضحة حرمان شعبه من الطعام والملابس، ومن وطنه فلسطين التي شبهها بحبيبته الصغيرة، التي قبض عليها الأعداء:

"أخذوا طعامه، والملابس، والبيارق
ورموه في زنزانة الموتى
وقالوا: أنت سارق!
طردوه من كل المرافي
أخذوا حبيبته الصغيرة
ثم قالوا: أنت لاجئ!"[19]

إن درويش يتمسك بقوة، وهي فوق الطاقة البشرية، إذ يندهش من ظلمة الغربة والأبواب المغلقة أمامه، يتصل في خياله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويتظلم من كل المعاناة التي فرضها عليه اليهود، يشكو من سلب حريته، وغضب أرضه وبيته، ويتألم الغربة التي أثقلت كاهل شعبه في المنفى، ثم يسأل تدبير الأمر، ويسمع من لسان النبي ذاك العامل الفريد الذي يمكن بمساندته تحمل كل المرارة، وهو الإيمان والأمل بالله تعالى:

"ألو....
أريد محمد العرب
نعم! من أنت؟
سجين في بلادي
بلا أرض، بلا علم، بلا بيت
رموا أهلي إلى المنفى....."[20]

الطرد والإبعاد:

أبعد مئات آلاف من أبناء فلسطين عن أرضهم وجذورهم وحضارتهم بعد نكبة 1948م، وعاشوا في الغربة بكل المرارة باحثين عن مأوى، لا جئين في الخيام أو مشرودين على هامش مجتمعات غريبة. وبدأ أبناء فلسطين سفرا لا ينتهي تحت رياح الضياع والغربة، حاملين عذاب الارتحال الدائم، السفر الذي جعل المشردين كأزهار ذابلة، وذاق درويش مرارة الغربة والبعد كمواطنيه الآخرين، إذ جرب الاغتراب داخل الوطن والنفي خارجه. وأثر هذا الاغتراب والتنقل عن عاصمة إلى أخرى، في نفس درويش، وجعلا أشعاره حنينا مؤثرا في النفوس، ذلك أن الأغاني تخرج من القلوب الجريحة التي حرقتها الغربة، ويصف في قصائده حياته في المنفي، ليس له رفيق غير شعره، وهو في المنفى بعيد عن جنان وطنه وربيع عينيه، ولكنه لا يكتفي بالتعبير عن

19 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 323.
20 المرجع السابق، ص: 157.

نفسه فحسب، بل يصور العذاب الملحق بأبناء شعبه في المنفى من الاغتراب والإحساس بضياع الهوية، ووحشة البيت الخالي من الضحك والسرور:

"على البؤساء منذ الصبح...ورداتي
وصارعت الذئاب وعدت للبيت
بلا رنات ضحكة حلوة البيت..
وحيدا أصنع القهوة
وحيدا أشرب القهوة
فأحسن من حياتي..من كفاحي
أخسر النشوة
رفاقي ههنا
المصباح والأشعار والوحدة
وحين أعود للبيت
أحس بوحشة البيت
وأخسر من حياتي كل ورداتي.."[21]

في قصيدة "رسالة في المنفى" يصور درويش مناناته اليومية في المنفى. فما عنده شيء إلا رغيفا يابسا، ودفتر أشعاره. إنه كطائر جريح فقد ريشه، وهو لا يستطيع الطيران، ينظر أن ينبت الريش على جناحه لكي يلحق في أجواء الوطن، يكتب رسالة إلى أهله ليخبرهم عن صحته بينما يعلم بأن ليس أي بريد لحمل رسالته، ولهذا يبلغ نداءه بالعصافير الحرة. وفي رأيه أن الغريب يموت مرتين: الموت الأول، وهو غربته في المنفى، لأن الوطن كل حياة الإنسان، وعندما يسلب عنه، فلا قيمة له بلا وطن:

"وقال صاحبي: هل عندكم رغيف؟
يا إخوتي؟ ما قيمة الإنسان
أن نام كل ليلة...جوعان؟
أنا بخير أنا بخير
عندي رغيف أسمر
وسلة صغيرة من الخضار
الليل يا أماه ذئب جائع سفاح..."[22]

تمتزج قصائد درويش التي تمحور عن غربة المنفى، بالحزن والحسرة، ولكن لا يختم عليها اليأس، بل في كثير من قصائده يجد الأمل بالعودة إلى الوطن، لأن مرارة التشرد وقسوة السوط إذا انتصرتا على أجساد المتشردين فلن تنتصرا على جوهرهم، والكرامة هي المبرر الوحيد لاحتمال عذاب الإنسان، هو يذكر للمتشردين فلن تنتصرا على جوهرهم، والكرامة هي المبرر الوحيد لاحتمال عذاب الإنسان، هو يذكر للمتشردين أرقام أسرى في روم وسبايا في بابل وإفريقيا، والبلاط بأيدي هؤلاء الأسرى:

21 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 31-32.
22 المرجع السابق، ص: 135.

يا أطفال بابل
يا مواليد السلاسل
ستعودون إلى القدس قريبا
وقريبا تكبرون
وقريبا تحصدون القمح في ذاكرة الماضي
قريبا يصيح الدمع سنابل
آه يا أطفال بابل
ستعودون إلى القدس قريبا
وقريبا تكبرون.([23])

سفك الدماء والاغتيالات:

نشاهد بين سطور أوراق ديوان أدب المقاومة عند تصفحة شرح جرائم المعتدين وسفك دماء المظلومين، وفقدان الأمن النفسي، واستشهاد النساء والأطفال في الشوارع والبيوت. تعد المجزرة العامة في كفر قاسم عام 1954م من الحوادث التي كان لها صدى عظيم بين الشعر الفلسطينين، خاصة محمود درويش. له أناشيد كاملة عن كفر قاسم في ديوانه الأخير "آخر الليل" فإنه يخلد ذكرى هذه المصيبة في قلوب أبناء فلسطين إلى الأبد، ويتعلم من هذه المذبحة، ومن ضرب الجلاد والحقد الذي يزرع في قلبه عوسج أن لا يساوم، بل يمشي ويقاوم. إنه يعتقد بأن الشعب الفلسطيني تعلم كيف يمارس حريته الوحيدة، حرية اختيار الموت في سبيل الحياة والمناضلون وحدهم قادرون دئما على تعبير المفاهيم، هكذا يصبح مفهوم الموت، مفهوم الحياة:

"أعيني على الحقد الذي يزرع في قلبي عوسج
إني مندوب جرح لا يساوم
علمتني ضربة الجلاد أن أمشي على جرحي
وأمشي، ثم أمشي وأقاوم"([24])

يغني الشاعر درويش بآلام وطنه، الوطن الذي أصبح كحبل غسيل المناديل، الدم المسفوك في كل دقيقة، دم أسراب العصافير التي تسقط كالورق الزائد بآبار الزمن، هو يعرض تصويرا مؤلما من قتل أم بين بنتها الصغيرة:

"الطفلة احترقت أمها أمامها.....
احترقت كالمساء
وعلموها: يصير اسمها
في السنة القادمة سيدة الشهداء
وسوف تأتي إليها
إذ وافق الأبياء"([25])

23 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 398.
24 كنفاني، غسان: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، بيروت 1987م، مؤسسة الأبحاث العربية ، ص: 95.

السجن:

عاش محمود درويش حقيقة السجن، إذ ذاقه منذ حداثته مرارا بسبب أغانيه المفعمة بالتحدي والغضب والتي تدافع عن الشعب الفلسطيني وعبير البرتقال. ظن العدو الصهيوني أنه يستطيع أن يسكت حنجرة الشاعر باعتقاله في السجن، بينما لا يخرج صوت الشاعر من فمه، بل يخرج من قلبه، وكما يقول درويش، الشعر دم القلب ودموع العين، صوت الشاعر صوت الحرية وصوت الأرض، لا يمكن أن يحبس في زجاجة. إذن ليس منع دفاتر الشعر ووضع التراب على فم الشاعر، وشد السلاسل على يده، مانعا في سبيل مقاومة درويش، لأنه إذا شدت يداه وملئ فمه بالتراب يغني بلسان مليون عصفور على أغصان قلبه، ويكتب أبياته بالأظافر والمجاجرو الخناجر، والسجن لم يبعده عن الناس والأشياء والقضية، وهو يحكي قصة احتلال وطنه في كل مكان، في غرفة التوقيف وتحت السوط والقيد، يقول:

"شدوا وثاقي
وامنعوا على الدفاتر والسجائر
وضعوا التراب على فمي
فالشعر دم القلب
ملح الخبز...."([26])

يقدر درويش تحمل ألم السجن، ولكن الوطن هو الذي يؤذيه، ويحن إليه خلف السور والباب، ويذوق مرارة فراغه. إنه يريد أن يعيش حرا تحت ضوء عيني وطنه، ويرجو الرجوع إلى مهد طفولته، ولهذا نجد في حبسياته روح الأمل بالحرية والعود إلى حضن الأم، غير السجن وجهة نظره وزاد قيمة كل شيء عنده، وهو في السجن ينظر إلى كل شيء بالنظر الجديد. فصار القمر أحلى وأكبر في السجن، وصارت رائحة الأرض عطرا له، وطعم الطبيعة سكرا له، إنه يرى حريته على سقف السجن، وهي مصلوبة على النار، يصرخ ويخبر الجلاد بعودته وتحرير المسجونين وموت أحزان السجن بعد أن يسترجع الزيتون خضرته ويمر البرق في وطنه.

حب الوطن:

محمود درويش هو شاعر الوطن، يدافع عن وطنه ولعل كل ما يكتبه في نهاية الأمر يتخلص في كشف نفسية الإنسان الذي يدافع عن وطنه بمختلف الأشكال والأزياء. وإن التشبيل بالأرض عند درويش شديد، إذ يضع الوطن في حقيقته في بعض قصائده عندما يضطر بترك الوطن، ويحمله إلى أي مكان يهرب ويطارد فيه. إنه يحب الوطن، حب القوافل واحة عشب وماء، وحب الفقير الرغيف، ويعطي عيونه وفؤائده له ويعشقه رغم أم حرير صدره فرش وثير للعدو، ويغني لوطنه حتى على المشانق، ويعزف حبه بالوطن في صدر يبأوه بصوت يحصل من ذوبان قلبه تحت طاحونة الألم، إنه يحمل الوطن في دفاتر شعره، ويريد أن يذكر بلده بأناشيده، إنه خلف السود والباب في المنفى، ويستمر في الحياة بعشق وطنه فقط، ويرجو أن يكون تحت عيني وطنه

25 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 438.
26 المرجع السابق، ص: 123.

لأنه جذر لا يعيش بغير أرضه وتطير روحه دائما فوق أعشاب أرضه كفجلة. فإنه شبه ألم البعد من الوطن بالنسر الذي يغمد منقاره في عينه:

"نسيمك عنبر
أرضك سكر
وقلبك أخضر!
وإني طفل هواك
على حضنك الحلو
أنمو وأكبر..."([27])

الأمل:

يعتبر شاعر المقاومة والألم والبؤس والحرمان جسرا يستطيع أن يوصله إلى الحرية. إنه يحتمل المرارة بأجمعها أملا إلى المستقبل يزداد فيه شجرة النصر التي يسقونها الأطفال بدماء أريقت فوق ترى فلسطين، ويطمئن بأن يوم النصر آت عن قريب. وكان من الذين يؤمنون بالغد، فهو أفضل من اليوم. فالشاعر يبشر على سبيل المثال بيوم ينهدم فيه غرفة التوقيف والسلاسل، وهذا المستقبل يتحقق بمجاهدة الأطفال المناضلين الذين يكبرون ويقلعون الصخر وأنياب الظلام:

"من يرفض الليلة في المهرجان
أطفالنا الآتون
من يظفر الأحزان
إكليل ورد في جبين الزمان..."([28])

خلاصة القول:

محمود درويش شاعر كافح عدو وطنه منذ نعومة أظفاره، واعتقل في هذا السبيل عدة مرات، ولكن لم يفقد أمله في سبيل تحرير بلده، بل ذاود عنها كما يدافع الغيور عن حبيبتها. وهو شاعر أشغله أي شيء عن ذكر بلده، له حب وانتماء خاص بمسقط رأسه معتقد بأن الوطن سيحرر يوما. وحصيلة أشعاره اجتمعت في عدة دواوين تطرق أثناءها إلى مشاكل مواطنيه؛ لم يستطع درويش اختيار الصمت أمام رؤية معاناة شعبه. فأنشد عن مشاكل الاحتلال كالبؤس والحرمان والقتل والطرد وصعوباته. يتحدث عن السجن ويعتقد بأنه لا يمنعه أي شيء عن الجهاد حتى السجن. يرى نفسه محروما عن مناعم بلده، وحينئذ يتذكر أيام طفولته وسكونها، فيتأوه ويستغيث. وليس للشاعر أي سلاح إلا الشعر فيتحدى به العدو، ويدعو الناس إلى الوحدة والثورة. ولا يفقد الشاعر أمله في المستقبل وينظم إلى يوم ميلاد أرضه في ربيع النصر، يوما سوف تزدهر فيه شجرة بانتة من دماء الشهداء.

27 درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة، ص: 244.
28 المرجع السابق، ص: 223.

المصادر والمراجع:

1. درويش، محمود: ديوان محمود درويش، الطبعة الحادية العشر، بيروت 1984، دار العودة.
2. بشرى وي، محمود درويش وقصائده في قضية فلسطين، platform almanhal.com، اطلع عليه بتاريخ 21-12-2019، بتصرف.
3. د. بسام خلف سليمان الجمداني، المقالة عند محمود درويش.
4. كامل سلمان جاسم الجبوري، معجم الأدباء من العرصر الجاهلي حتى سنة 2002م، جزء 6.
5. حيدر توفيق بيضون، محمود درويش- شاعر الأرض المحتلة، حزء 92، سلسلة أعلام الأدباء، بيروت : الكتب العلمية.
6. هاني الخير، محمود درويش: رحلة عمر في دروب الشعر/ موسوعة أعلام الشعر العربي، دمشق: مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع.
7. د. تهاني عبد الفتاح شاكر، محمود درويش ناثرا، نقد أدبي، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنش.
8. حمو حنات، الحنين في شعر محمود درويش، الجزائر: وزارة التعليم العالمي والبحث العلمي.
9. نورة بن تهامي، د. مليكة دحامنية، ، انفتاح النص الشعري عن محمود درويش قصيدة "أنا يوسف يا أبي" أنموجذا، مجلة حوليات آداب واللغات، العدد 11، المجلد5.
10. كنفاني، غسان: الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، بيروت 1987م، مؤسسة الأبحاث العربية.